معاجم مصطلحات القراءات المعاصرة وقِيَمِها الحضارية

■ أ. د. خالد فهمي - مصر

(٠) لا حدود للنور (مدخل)

لقد استقرَّ يقيناً ومن أصرَحِ طريق النظر إلى الذكر الحكيم على أنه نور، بكل ما تعنيه هذه المفردات من دلالات، وهو المعنى المصرح به في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾، [سورة النساء:١٧٤] ويعلق الماوردي في النكت والعيون (١/ ٤٥٤ طبعة دار الصفوة، القاهرة سنة ١٩٩٣م) فيقول: «يعني القرآن، سمي نورا، لأنه يظهر به الحق، كما تظهر المرئيات بالنور».

وفحص السمات الدلالية لهذه الكلمة يقود إلى إدراك قيمة ما يحققه ذلك الكتاب العزيز من إضاءة لدروب الحياة، وتمكن من التبصر في مسالكها، حتى وصل إلى أن يفهم من الكمال المطلق؛ وهو ما يقرره مفيد كرماني في كتابه المهم: بلاغة النور: جماليات النص القرآني: (ص ٤٨٤ منشورات الجمل، بغداد وبيروت سنة ٢٠٠٨ م)، فيقول إن «القرآن هو العمل الفني المطلق لكافة الحضارات الإسلامية». وربما فسرت هذه الجملة المحورية التي تقرر حقيقة الكتاب العزيز حجم الحراك والمنجز المعرفي الجبار الذي خرج للحياة بسبب من إرادة خدمة وتيسير الكتاب.

علم القراءات: مفهومه وغايته ومقاصده

يعرف هذا العلم بأنه «علم بكيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، اتفاقا واختلافا مع عزو كلّ لناقله». ومن هذا التعريف الذي أورده الدكتور عبدالعلي المسئول في: معجم مصطلحات علم القراءات (ص ٥٠٨/٢٥٦) نكتشف غايته الجليلة المتمثلة في ضبط أداء الذكر الحكيم ونطقه، مع استصحاب التنوّعات وإسنادها.

وهذا العلم.. بهذا المفهوم وبهذه الغاية، يهدف إلى تحقيق عدد من المقاصد الجليلة يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أ- إقامة تكليف شرعي أمر به الشارع سبحانه في كثير من آيات القرآن الكريم، عندما أمر بقراءته وتلاوته وترتيله، يقول تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ [سورة المزمل:٤]، ويقول جل وعز: ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ [سورة المزمل:٢٠].

ب- الإعانة على تيسير تلاوته للناس ببيان

الكيفية، واستيعاب طرقها.

ج- الإسهام في فهمه وتدبّره، إذ حُسن قراءته سبيلٌ لازمةٌ إلى حسن فهمه.

د- تحقيق حفظ الدين بحفظ أصله صحيحا منضبطا متمثلا في ضبط الذكر الحكيم.

هـ- الإسهام في ترقية العقل المسلم بترقية بعض العلوم الشرعية لازمة التحصيل.

ورفع الحرج ودفع المشقة بالقيام بواجب ضبط كيفية الكتاب العزيز.

ز- صيانة أداء الذكر الحكيم من أي صورة من صور تطرُّقِ الخطأ إليه.

مصطلحية القراءات القرآنية: مقال في حدود المصادر

وقد استكمل هذا العلم الشريف جهاوه الاصطلاحي، أو مجموعة مصطلحاته منذ فترة مبكرة في تاريخ العلم عند المسلمين، بسببٍ من منزلة الكتاب العزيز المحورية في هذه الحضارة العريقة.

وقد توافرت مادة هذه المصطلحية من مجموعة من المصادر، يمكن تصورها إجمالا فيما يأتي:

أولا: القرآن الكريم، ذلك أنه بحكم ما أمر به من قراءته وتلاوته وترتيله، استعمل عددا من الألفاظ التي صارت مصطلحات في جهاز العلم الاصطلاحي؛ فالقراءة والتلاوة والترتيل نماذج من هذه المصطلحات المركزية، استعملت مشتقاتها بمعانيها العلمية أولا في الذكر الحكيم، يقول تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ [سورة البقرة:١٢١]، وما يلحق بهذا المصدر عظيم الموثوقية من كتب التفسير وكتب علوم القرآن.

ثانيا: السنّة الشريفة، وذلك أنه بحكم كون السنّة المشرّفة بيانا للذكر الحكيم، فإنها استعملت عددا أكبر من الألفاظ التي صارت جزءا أصيلا من مصطلحات علم القراءات القرآنية، مثل: الإقراء والاقتراء والتحسين والتبيين، وهي جميعا مصطلحات قرائية أقرت بها السنة عند التعامل مع كتاب الله عز وجل.

ثالثا: كتب علم القراءات التي تعرض لمسائله وأصوله وفرش حروفه، وهي كثيرة جدا، ومتنوعة المناهج جدا، مثل: كتاب السبعة لابن مجاهد، وغيره.

رابعا: كتب التجويد بما هو جزء من علم القراءات، يقصد إلى الإتيان بالقرآن بريئا من أي صور رديئة النطق، وهي كثيرة جدا ومتنوعة كذلك مثل: جهد المقل لساجقلي زاده وغيره.

خامسا: كتب الوقف والابتداء، وهي فرع وفرع من علم القراءات، وهي كثيرة جدا مثل: القطع والائتناف للنحاس، وكتب الرسم وهجاء المصاحف ككتاب ابن نجاح وغيره، وكتب طبقات القراء، ككتابي الذهبي وابن الجزري وغيرهما.

سادسا: كتب اللغة.. ولا سيما: كتب الصوتيات، وكتب النحو التراثية التي انشغلت في جزء من بنائها وتكوينها المعرفي ببيان مخارج الأصوات وصفاتها، مثل: كتاب سيبويه، وكتاب «سر صناعة الإعراب» لابن جنّي وغيرهما.

سابعا: معاجم المصطلحات التي جمعت مصطلحات العلوم المختلفة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية،

وهي كثيرة ومتنوعة الترتيب مثل: «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و«التعريفات» للجرجاني، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي وغيره.

ثامنا: معاجم مستقلة استقلت بجمع مصطلحية هذا العلم قديما وحديثا، وهي مشغلة ما بقي من هذه الورقة.

(٣)

معاجم مصطلحات علم القراءات القرآنية مقال في الأدبيات والتصنيف

وقد عرفت المصطلحية العربية عددا من معاجم مصطلحات علم القراءات القرآنية، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أولا: معاجم جزئية جمعت عددا من مصطلحات هذا العلم، وهي معاجم مصطلحات التجويد، ويمثلها: «التجريد لمعجم مصطلحات التجويد»، للدكتور إبراهيم بن سعيد الدوسري (طبعة دار الحضارة الرياض سنة ١٤٢٩هـ).

ثانيا: محاولات معجمية تراثية يمكن اعتبارها بقدر من التوسع معاجم لمصطلحات علم القراءات القرآنية، ويمثلها:

أ- «مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ»، لابن الطحان السحائي المتوفى سنة ٥٦١هـ (بتحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، الشارقة سنة٢٠٠٧ م).

ب- «القواعد والإشارات في أصول القراءات»، لابن أبي الرضا الحموي، المتوفى سنة ٧٩١هـ (بتحقيق الدكتور عبدالكريم بن محمد الحسن بكار، دار القلم، دمشق سنة ١٩٨٦م).

ثالثا: معاجم مصطلحات علم القراءات القرآنية في العصر الحديث، وهي أوسع هذه المصادر، وأكثرها تنظيما ووفاء بشروط الصناعة المعجمية مقارنة بما سبقها، ويمثلها:

أ- «إسهام في وضع مصطلحات علم القراءات»، للدكتور محمد المختار ولد أباه (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ع ٨٥ ق، لسنة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م).

ب- «أشهر المصطلحات في فن الأداء وعلم القراءات»، لأحمد محمود عبدالسميع الحفيان، (دار الكتب العلمية، ببيروت سنة ٢٠٠٠م).

ج- «معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلق به»، للدكتور عبدالعلي المسئول (دار السلام، القاهرة سنة ٢٠٠٧م/ والطبقة الثانية ٢٠١١م).

د- «مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات» للدكتور إبراهيم بن سعيد الدوسري، (دار الحضارة، الرياض سنة ٢٠٠٨م).

وفحص منهجيات ترتيب المعاجم الحديثة في هذا الباب يكشف عن مجموعة مهمة من العلامات هي:

أولا: استعمال منهج الترتيب الألفبائي وفق شكل الكلمة النهائي، أي من دون تجريد.. وهو أمر مقصود، اتجهت له تطبيقات الصناعة المعجمية الحديثة تلبية للتيسير على المستعملين.

ثانياً: بيان المعاني اللغوية للألفاظ، ثم

المعاني الدائرة في استعمال القراء، وهي المعاني الاصطلاحية.

ثالثاً: محاولة الاستيعاب والشمول، ولها وجهان:

١- الاجتهاد في جمع المصطلحات القرائية واستيعابها في هذه المعجمات، وإيراد ما يتعلق بها ويدور في فلكها من ألفاظ العلوم الأخرى المشتبكة معها.

٢- الاجتهاد في جمع دلالات المصطلح الواحد، عند تعدّد معانيه؛ فمثلاً يورد الدكتور المسئول (ص ١٢٢/ ١٨٨) معنيين لمصطلح التحقيق عند القراء هما:

أ- إعطاء الحروف حقوقها، وتنزيلها مراتبها، وهو المعنى المقصود في باب مراتب القراءة.

ب- نطق الهمزة كاملة في صفاتها مقطوعاً بها النفس: وهي بهذا المعنى ضد التخفيف أو التسهيل.

رابعاً: العناية ببيان مستوى الاستعمال، أي ذكر العبارات التي تكشف عن مواضع استعمال المصطلحات المختلفة في أبوابها المختلفة، إعانة على إدراك معانيها منضبطة صحيحة.

خامساً: استعمال طرق شرح تستهدف بيان السمات الدلالية الفارقة، سعياً إلى تحرير مفاهيم المصطلحات مع ضرب الأمثلة التوضيحية، ومن أجل ذلك انتشر فيها جميعا استعمال طريقين من طرق شرح المعنى هما:

أ- طريقة الشرح بالمحكم، وهي طريقة تكون بجمع صفات المصطلح المعرّف.

ب- طريقة الشرح بالهجين، وهي جماع أمرين معا.. استجماع صفات المصطلح المعرّف مقروناً بأمثلة توضيحية في الوقت نفسه.

سادساً: العناية في أحيان ظاهرة ببعض المعلومات الموسوعية مثل: أسماء بعض القراء المشهورين، وأسماء بعض الكتب المختصة في هذا الباب.

سابعا: العناية بضبط المصطلحات تيسيرا لتحصيل نطقها.

ثامنا: العناية والتوثيق.

(٤)

معاجم مصطلحات علم القراءات القرآنية في العصر الحديث وظائفها وقيمتها الحضارية

إن تأمّل هذه المعجمات، وما تؤديه من أدوار ووظائف، يكشف عن مجموعة من العلامات ترقى بقيمتها الحضارية، وفيما يلي محاولة لرصد أهم هذه الوظائف الكاشفة عن قيمتها وأهميتها معا:

أولا: الوظيفة الاعتقادية، ذلك أن هذه الكتب بسعيها نحو ضبط كيفيات قراءة الذكر الحكيم، تحقّق أدوات تنزيه الله تعالى بتنزيه كتابه المنزل من تطرق الأخطاء إلى قراءته.

ثانيا: الوظيفة الدينية (العبادية)، ذلك أن الله تعالى أمر بتلاوة كتابه، وأمرت السنة وفصَّلت الأمر في تحبير قراءته، والاجتهاد في تحسينها، وهو ما لا يمكن

تصوّره من غير القيام بواجب هذا المقصد، وهو بعض ما تسهم به هذه المصطلحات عندما تحرّر مفاهيم هذا العلم وتبينها.

ثالثا: الوظيفة المعرفية، ونعني بها تحصيل مفاهيم هذا العلم وضبطها وتحريرها، وتوثيقها، والكشف عن مذاهب القوم واتفاقاتهم واختلافاتهم في هذا الميدان.

وقضية تحصيل المفاهيم التي يقوم بها ضبط الجهاز الاصطلاحي أمر مستقر، ذلك أن المصطلحات مفاتيح العلوم، تمهد الطريق لفهم مسائله.

رابعا: الوظيفة اللسانية، ذلك أن هذه المعجمات بما تجمعه في داخلها بحكم بنائها المعرفي، ترشد إلى سمات الأصوات العربية، وكيفيات نطقها على الوجه الصحيح، والمذاهب المختلفة لنطق بعضها، وما يجوز وما لا يجوز، وما الأفصح؟ وما الفصيح؟ إلى غير ذلك مما يكون تحصيله نافعاً في خدمة المعرفة اللغوية، فضلا عما تقدمه لميدان اكتساب اللغة بتدريب الألسن على النطق الصحيح.

خامسا: الوظيفة التاريخية، ونعني بها الوقوف على تطور هذا الجهاز الاصطلاحي، ومراحل انضمام بعض المصطلحات إلى هذا العلم، والوقوف على حجم ما أنجزه العلماء في هذا الباب، وتطور التأليف فيه مع مرور الزمان.

سادساً: الوظيفة الأخلاقية، وذلك أن تأمُّل منجز علماء القراءات يوقفنا على تقدير ما قاموا به، مما يلزم معه تقدير مجهودهم، والوفاء له بنوع وفاء عملي إيجابي، بتطويره، والبناء عليه.

سابعاً: الوظيفة الحضارية، ونعني بها تأكيد أثر الكتاب العزيز في ترقية العلوم في الحضارة العربية والإنسانية بوجه عام.. بما أوجده من علوم، وتحريره للمصطلحات التي ظهرت وهدفها المباشر خدمة الكتاب الكريم من جوانبه المختلفة، نطقاً وأداءً وكيفية، وهو ما انشغل به هذا النوع من المعجمات، إمعانا في أن الحكم المستقر بأن القرآن الكريم هو السبب المباشر، الذي انتقل بالحياة العربية النقلة الجبارة غير المسبوقة في التاريخ يتأكد على الزمان.

وتكشف هذه الوظيفة أيضاً أدلة متضافرة على قدرة العقل العربي المعاصر على استثمار منجز التطبيقات المعاصرة، في مجالات مختلفة لتحقيق خدمات جليلة للعلوم الشرعية؛ فقد اتضح أن المعاجم المعاصرة في هذا الباب أفادت نوع إفادة من تطبيقات صناعة المعجم الحديث.

كما تكشف هذه الوظيفة أيضـاً عن قدرة اللسان العربي (ألفاظا/ وتراكيب/ واختصارات)، على استيعاب حقائق العلوم المختلفة، والوفاء بواجباتها؛ فقد رأينا كيف تنوعت أنماط المصطلحات القرائية، وأبدت اللغة مرونة واضحة في هذا المجال.

إن الكتاب العزيز سيظل نوراً عامراً، يزداد عطاؤه مع ازدياد خدمته، والعكوف عليها، وتطوير مسارات هذه الخدمة. إن الصوت النهائى الذى سيعلن عن نفسه هنا.. هو أن النور الذى يشعّ من الكتاب الكريم لا حدود له ولا لطاقاته الفريدة..